على طريق الأصالة الإسلامية

التاريخ في مفهوم الإسلام

تأليف

أنور الجندي

دار الأنصار

مكتبة - طباعة - نشر - توزيع

[illegible]

ت ٩٣١٥٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

يقارن الاستاذ ولفرد كانتول سميث فى كتابه (الاسلام فى التاريخ الحديث) بين احساس الهندى والمسيحى والماركسى تجاه التاريخ واحساس المسلم تجاه التاريخ فيقول أن الرجل الهندى لا يأبه للتاريخ ولا يحس بوجوده ، لان التاريخ هو ما سجله البشر من أعمال فى عالم المادة وعالم الحس ، والهندى مشغول دائما بعالم الروح ، عالم اللانهائية ، ومن ثم فكل شىء فى عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ولا وزن ، والتاريخ بالنسبة اليه شىء ساقط من الحساب. اما المسيحى فيعيش بشخصية مزدوجة أو فى عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط ، فالمثل الاعلى عنده غير قابل للتطبيق والواقع البشرى المطبق فى واقع الارض منقطع عن المثل الاعلى المنشود ، ويسير هذان الخطان فى نفسه متجاورين أو متباعدين ولكن بغير اتصال ، والتاريخ فى نظره هو نقطة ضعف البشر ، وهبوطه وانحرافه ، اما التاريخ فى نظر الماركسى فهو

الايمان بحتمية التاريخ بمعنى ان كل خطوة تؤدى الى الخطوة التالية بطريقة حتمية ولكن لا يؤمن الا بهـذا العالم المحسوس ، بل لايؤمن فى هذا العالم الا بالمذهب الماركسى وحده ، وكل شىء عداه باطل ، والماركسى يتبع عجلة التاريخ ولا يوجهها ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها ، أما المسلم فانه يحس بالتاريخ احساسا جادا ، انه يؤمن بتحقيق ملكوت الله فى الارض ويؤمن بأن الله قد وضع نظاما عمليا واقعيا يسير البشر فى الارض على مقتضاه يحاولون دائما ان يصوغوا واقع الارض فى اطاره ، ومن ثم فهو دائما يعيش كل عمل فردى أو جماعى ، وكل شعور فردى أو جماعى ، بمقدار قربه أوبعده من واقع الارض لانه قابل للتحقيق. والتاريخ فى نظر المسلم هو سجل المحاولة البشرية لتحقيق ملكوت الله فى الارض ، ومن ثم فكل عمل وكل شعور ، فرديا كان او جماعيا ذو اهمية بالغـة لان الحاضر هو نتيجة الماضى والمستقبل متوقف على الحاضر ، فالمفهوم الاسلامى واضح الايجابية ، فبينما غير المسلم يضحى بنفسه لانه لا يريد أن تمر عجلة التاريخ الخاطئة وهو حى وسامح لها بالمرور ، فهو يقف فى طريقها حتى تدوسه وتقتله ، ويكون ذلك اغلى قربان يتقدم به الى الله . فان المسلم حين يضحى بنفسه ، ففى حسه ان هناك نظاما الهيا يراد أن يطبق

فى واقع الارض ، وفى حسه وهو يضحى انه يدفـــع عجلة هذا النظام خطوة الى الامام .

هذه العبارات للكاتب الغربى تقرب من الحقيقة وتكشف عن الفارق العميق بين فهم المسلمللتاريخوبين فهم الطـــوائف الاخرى ، ويتـــابع (اليان وايدغراى) هذا المعنى حين يقول : ان وجهة نظر المسلمينللتاريخ هى نظرة بنـــاءة ، فهم يرون ان البشرية اذا اعتنقت تعاليم الوحى (القرآن) فان ارادتها حينئذ يتطـــابق وارادة الله ، ولا يعود يوجد من يعصى أوامره ، ويعم الاخاء بين البشر ، ومن صفات المؤمن انه صابر ويعلم أن الامر لارادةالله ، وقد قدموا افضلفيلسوفللتاريخ، مثلا بالفيلسوف ابن خلدون وكان أول فيلسوف حلل درجات تأثير المحيط والدوافع النفسية التى تعملعملها فى الحياة الانسانية ، وتسبب نشـــوء الحضارات وانقراضها ، ونشاهد بوجه عام تيارين يتنـــازعان السيطرة على اقطار فلاسفةالتاريخالمسلمين : المفهوم الحركى ، والمفهوم القدرى وكلها تظهر بوضـــوح فى تقلبات القوى الاجتماعية وعلى العكس من ذلك كان الفلاسفة الهنود قد قطعوا كل صلتهم بما هـــو وقتى وفورى وقدموا تعاليم انهزامية وانعزالية ، والتاريخ بالنسبة للبوذية والهنود ليس الا وهما » .

ويؤكد الاستاذ تريتون فى كتـــابه « الاســـلام : عقيدته وعبادته » ان التفسير المـــادى لا يصلح لفهم تاريخ الاسلام ، يقول : اذا صح فى العقول أن التفسير المادى يمكن أن يكون صالحا فى تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها، فان هذا التفسير المادى يفشل فشلا ذريعا حين يرغب فى أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم ، وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم ، وثبات أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين الا أن ينظروا فى العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة فرأوا أنها تقع فى هذا الشىء الجديد: الا وهو الاسلام » .

وهذا ما نريد ان نصل اليه : فى أن أى محاولة لتفسير تاريخ الاسلام بغير التفسير الاسلامى للتاريخ محاولة باطلة وأن جميع مذاهب التفسير التاريخى : المـــادية والاقتصادية والجغرافية والمناخية .. الخ لا تستطيع أن تستوعب مفهوم التاريخ الاسلامى ولكل امة وعقيدة مقاييسها التى تشكل قانون تفسيرها .

واننا لنجد الآن محاولات لتفسير تاريخ الاسلام تنبعث من النظرية الغربية الليبرالية ، وهذه قاصرة، ومن النظرية الماركسية وهذه قاصرة أيضا .

ومن النظرية المادية وهذه قاصرة أيضا ، ذلك ان الاسلام الذى يقوم منهجه على تكامل الروح والمادة، والحياة والموت ، والدنيا والآخرة والنفس والجسد، والثــوابت والمتغيرات والكلى والجزئى ، لا يمكن ان يفسر بمنهج جزئى سواء أكان ماديا أم روحيا خالصا، ولذلك فان هذه المحاولات كلها التى تحـــاول ان تضع الاسلام فى صف الديمقراطية مرة ، او الاشـــتراكية مرة ، او الحرية مرة ، كلها قاصرة فالاسلام له ذاتيته الخاصة وتكوينه الجامع المنفرد الذى قد يلتقى ثمة مع جانب من هذا أو ذاك ولكنه لن يكون الا هو وحـــده الذى تعجز المناهج المادية ونظريات التفسير الجزئية عن استيعابه وفهمه ولعل هؤلاء الثـــلاثة : كانتول وجراى وتريتون قد ردوا على هـــذه المحاولات وهم كتاب غربيون عرفوا حقيقة ذاتية الاسلام وطابعـــــه الميـــز .

واجه التاريخ (الاســـــلامى) حملة ضخمة من حملات التغريب والغزو الثقافى تســـتهدف الى اثارة الشبهات والشكوك حوله ، بقصده وضعه موضـــع الازدراء والانتقاص فى نظر اهله ، وحتى يفقد اهميته من حيث أنه قوة انبعاث ويقظة ، وكان هدف التغريب ينصب على (اختلاق تاريخ اسلامى منفر) عسى ان

ينتزع من المسلمين ثقتهم فى ماضيهم الاسلامى وفى أنفسهم كمسلمين ، ويسلخهم من تراثهم الفكرى وتاريخهم الاسلامى فيصبحون بلا ماض ، فتضعف معنوياتهم ، وبدا تسهل السيطرة عليهم فكريا وثقافيا، مقدمة للسيطرة عليهم عسكريا واقتصاديا ، وتدجرت المحاولات لاحلال مناهج الغرب فى تفسير التاريخ الاسلامى بديلا للدراسات الاسلامية ، وفرضت كتب الغرب فى المدارس والجامعات ، وجعلت مناهج الغرب فى دراسة التاريخ هى الجواز الى تخريج المؤرخين العرب والى صدارتهم .

وقد امتلأت هذه الدراسات بالتطاول على اعلام الاسلام وقادته وتوابعه والتشهير بهؤلاء العظماء فى كل عصر ، عن طريق تزييف طائفةمن الاخبار المشكوك فيها والقصص والاعتماد على مصادر غير أصيلة او مطعون فى صحتها لالتماس هذه الشبهات حولبطولات رجال التاريخ الاسلامى وأباح بعض المتصدرين فى الجامعات « للخيال أن يذهب مذهبه فى ابتكار الصور التى تقرب للناس حقائق التاريخ » وبذلك جرى تصيد الروايات من هنا وهناك لمحاولة دعم آراء محرفة معدة أساسا لاثارة الشبهات وما تزال هذه المحاولة تتخذ للتآمر على التاريخ الاسلامى قديما وحديثا .

فقد اشار الشيخ ابو بكر بن العــربى فى كتابه (العواصم من القواصم) الى هذه المراجع المشبوهة حين قال : لتحذروا من المفسرين والمؤرخين وأهــل الادب فأنتم اهل جهالة بحــرمات الدين وعلى بدعة مصريين فلا تبالوا بما رووا ، ولا تنقلوا رواية الا عن أئمة الحديث » .

ولقد رسم مؤرخو المسلمين منهج البحث التاريخى على نحو علمى صحيح ، وحــذروا من خطــر ذوى الاعتراض وقال الامام تاج الدين السبكى : لا بد أن يكون المؤرخ عالما عدلا عارفا بحال من يترجمه ، ليس بينه وبينه من الصداقة ما قد يحمله على التعصب له، ولا من العداوة ما يحمله على الضغن منه وربما كان الباعث له على الضعة من اقوام مخالفــة العقيــدة واعتقاد أنهم على ضلال فيقع فيهم او يقصر فى الثناء عليهم (طبقات الشافعية) .

وثمة خطر آخر خطير واجه التاريخ الاســلامى فى العصر الحديث : ذلك هو مفهوم التاريخ فى الفــكر الغربى فقد ظهرت عدة تفسيرات تحاول ان تفــرض نفسها على فهم التاريخ منها : التفســير الجغرافى ، والتفسير البيولولوجى والتفسير الاقتصادى والتفسير

الاجتماعى والتفسير النفسى وقد حاول كل من الباحثين أن يؤكد تفسيره ويعليه على كل العوامل ويرى البعض أن العامل الجغرافى هو العامل الاول اعتمادا على التضاريس الارضية ومصادر الثروة وتوزيع الحياة والاحوال الجوية ، ويرى غيرهم أن اثرا الوراثة هو العامل الاوحد أو الاهم .

ويرى آخرون أن عامل البيئة هو القوة المؤثرة حياة الناس .

ويرى ماركس : أن العامل الاقتصادى هو العامل الاساسى فى حركة التاريخ .

ويرى توينبى (التفسير الاجتماعى والحضارى) أن مواضيع التاريخ الصحيحة هما المجتمعات الانسانية ومدنياتها لا الشعوب والاقطار ويرى فرويد ان العامل الاساسى ليس سوى أزمات نفوس الافراد التى ادت الى الانقلابات الهائلة فى التاريخ ويرى أصحاب نظرية التفسير البيولوجى للتاريخ : ان التاريخ يتناول حياة الانسان من حيث هو انسان ويبحث فى أثر الزمن فيما هو انسانى بحت ، والبيولوجيا هى البحث عن أثر الزمن فى الكائنات الحية من حيث النمو والانحلال والتطور .

وهناك تفسير (هيجل) السياسى ، وكل هذه النظريات مجرد احتمالات وفروض ، ونظرات محدودة قاصرة ، ومركزة على جانب واحد ولعها جميعا تمثل مجموع العوامل المؤثرة فى التاريخ على أقدار معينة وادوار متفاوتة ، ولقد عجزت كل نظرية من هذه النظريات فى أن تحقق الغرض أو أن تثبت سيطرتها بمفردها على تفسير التاريخ .

أما مفهوم الاسلام لتفسير التاريخ فهو لا يأخذ بعامل واحد من هذه العوامل ، ولكنه مفهوم جامع يستمد طابعه الاساسى من الفهم لارادة الله العليا المحيطة بالكون والاشياء ، وبالترابط الوثيق بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة ، وبين ارادة الانسان ذات الاثر الجوهرى فى التعبير ، وبين العوامل المادية والروحية والنفسية جميعا ، فليس لعامل واحد مهما كان قدره الانفراد بالتأثير وترى النظرة الاسلامية ان العوامل المعنوية : روحية وأدبية ونفسية لها آثارها البعيدة التى تزيد كثيرا عن العوامل الاقتصادية والاجتماعية التى يركز عليها الفكر الغربى فى مرحلته المادية التى يعيشها فى هذه القرون الاخيرة .

يقول ويلفرد كانتول سميث : ان الاسلام يرى لكل حادث دنيوى تفسيرين ، ويقيسه بمعيارين :

أحدهما وقتى والآخر أبدى ، ومع ان الاسلام والماركسية يعطيان أهمية بالغة لتطور التاريخ وحتميته فان الاسلام رغم اعترافه بمغزى التاريخ الحاسم الا انه يرى ان هذا المغزى لا يذوب فى خضم التاريخ نفسه بل يوجد من القيم والانماط ما يعلو على مجريات التاريخ والحكم على هذه المجريات يمكن بل يجب أن يكون فى ضوء هذه القيم — والمقصود بذلك هى (القيم الروحية) التى لا وزن لها فى الماركسية .

وتختلف وجهات النظر كثيرا بين التفسير الغربى (بألوانه المختلفة) للتاريخ وصراعاته المتعددة وبين التفسير الاسلامى .

أولا : ومن وجوه الاختلاف : ان النظرة الغربية المنبثة فى مختلف نظريات تفسير التاريخ (وخاصة النظرية الماركسية) يعتبر أن « تاريخ أوربا » وحده هو تاريخ العالم ، أما بقية أجزاء العالم وحضاراته وتاريخه فهى ليست موضع اى تقدير ، كذلك فهى تنظر الى (الدين) بعامة نظرة مظلمة ، موقف غربى خاص بالغرب وحده لا تشرك معه أمم الشرق او اى أمة أخرى يرجع الى ذلك الصراع الذى وقع بين الكنيسة وبين النهضة الاوربية الحديثة ، وقد تأثر

فلاسفة التاريخ جميعا بهذين العـــاملين : كما تأثر ماركس وانجلز بالنظرة المادية الىالتاريخ ، لارتباطهما بدارون وفورنباخ ، فقلبا فلسفة هيجل رأسا عـــلى عقب ، كما كان لا يعتبران بالنظرة الاسلامية ، وكانا يصدران عن المعركة الاوربية فى رأيهم فى الدين بأنه أفيون الشعوب ، هذا الرأى محدود يحـــدد التجربة التى عاشوها ، والتفسيرات التى وجدوها فى بيئتهم.

ولعل من أسوأ الظلمات التى تحـــول دون فهم الحقيقة البشرية هو الرأى الذى يحملهالتفسير المادى للتاريخ بأن الافكار والمشـــاعر الانسانية والبشرية ليست سوى مظهر من مظاهر العـــوامل المـــادية فى المجتمـــع .

ثانيا : عجز التفسير التاريخى الغربى (وهـــو المادى المصدر) عن استيعاب حقائق التاريخالاسلامى التى تعلو على التصور المادى فسرعة انتشار الاسلام على هذا النحو المذهل واستطاعته فى خــــلال فترة تقل عن قرن من الزمان أن يبسط جناحيه من حـــدود الصين الى حدود فرنسا ، هذا فى تقدير التفســـير الغربى مشكوك فيه ذلك لان الفـــكر الغربى لا يؤمن بأثر : الايمان العميق القادر عن طريقالارادةالانسانية

الى التغيير الواسع ، كذلك فالتفسير الغربىيعجز عن فهم واستيعاب قاعدة اسلامية اساسية هى « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » ذلك ان التقدير المادى يرى أن الكثرة هى الغالبة ابدا ، بينما يضع الاسلام قوة جديدة مضاعفة الى قوة العدد والعددهى قوة الايمان ، وقد اكدت الفتوح الاسلاميةهذهالظاهرة بما لا يدع مجالا للشك ، فقد ثبت فى مختلف الغزوات والمعارك التى دخلها المسلمون أن عددهم فيهـا كان أقل من عدد خصومهم بمراحل ، وان عدد عدوهم كان مضاعفا أكثر من مرة بل مرات ، فالنصر هنا يرجع الى عنصر الايمان الذى لا يعتد به فى الحساب عن التفسير الغربى للتاريخ .

ثالثا : ظاهرة التعصب الواضحة فى التفسير الغربى للتاريخ الاسلامى .

وهذه الظاهرة طبيعية فهى مستمدة من الاختلاف بين الاديان ومن اختلاف وجهات النظر ، ومن الصراع القائم بين الشرق والغرب ، ومن وجهةنظر الاستعمار الذى يرى أن الغرب هو الجنس الابيضممدن البشرية وان بلاد الاسلام هى العناصر الملونة التى يرى انهـا اقل فى الدرجة والقدرة والكفاية .

ومن خلال نظرة التعصب الغربى تجرى تفسيرات خاطئة ، فى مقدمتها الادعاء بأن « انتشار الاسلام جاء بالسيف » وهى مبطلة ، والحق ان الاسلام لم يرفع السيف الا دفاعا عن كيانه حين يتعرض وجوده للخطر ، وذلك فى مقاومة محاولات المتآمرين عليه .

* * *

وهكذا نجد ان الاسلام فى عقيدته وحركته له ذاتية خاصة تعجز عنها النظريات التى تحاول ان تطبق مفاهيمها لتفسيره .

ومن هنا فلا بد ان يكون للتاريخ الاسلامى تفسيره الاصيل .

وان كل ما يشوب النظرة الغربية من شبهات حول حركة الاسلام يسقط حين يوضع الاسلام موضع التقدير الصحيح : وهو معرفة طبيعة الاسلام وطبيعة الاسلام أنها عقيدة تجمع بين الواقع والمثال والدنيا والآخرة والقلب والعقل ، ولها مرونة واضحة وافق منطلق واطارات واسعة تجعله قادرا على مواجهة الحضارات والثقافات المختلفة على قاعدته الاساسية ، مع سماحته الواضحة فى اتاحة الفرصة لاهل البلاد فى

حكم أنفسهم ، حرية العبـــادة دون فــرض عقيــدته بالقوة ، وكون الاسلام ليس دينا فحسب ، بل نظـــام مجتمع ومنهج حياة ، الدين بمعنى العبادة جــزء منه وانه استطاع أن يستوعب حضارات الامم وثقافاتها وأن يهضم الصالح منها ويسيغه وينميه فى اطارمفهومه الاصيل : « التوحيد » وانه وفق بين العلم والدين ، وبين الخلق والسياسة ، ومن هنا فقد كان التوحيـــد أبرز عوامل اندفاع التاريخ الاسلامى بأجنحته : العدل والاخاء والرحمة والكرامة والاعتزاز بالله ، وقـــد بدا الطابع الانسانى والنزعة العالمية واضـــحة فى حركته منذ اليوم الاول .

هذا فضلا عن بقاء القرآن : وهو الوثيقةالكبرى له سليمة من الزيف ، ومع وضوح شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وحياته وتصرفاته واقوالهواعماله على نحو يكاد يكون كاملا ، وكذلك وضوح شخصيات ابطال الاسلام ومواقفهم وتفاصيل هـــذا التاريخ كله ودقائقه على نحو علمى دقيق .

ولقد كان الاسلام هو الدافع الاول والبـــاعث الاساسى الى توحيد العرب واخراجهم من شـــــبه جزيرتهم ، وانتشارهمفى الارض ، ولم تستطعالاحداث

الكبرى فى تاريخ الاسلام ان تغير الطابع الاصيل للنظم الاساسية ولكنها جددت البنـــاء الخارجى واعادت تشكيل الفروع وصياغتها فى اطار الاسلام لم يصاحبها روح التعصب والخضوع الاعمى وانما صاحبها اقتناع مستنير وايمان عميق .

ولـمـا كان الاسلام نفسه يقوم على اســـــاس النظرة الجامعة فانه لا يمكن ان يفسر تاريخه الا من خلال مفهوم جامع مترابط .

ولقد ظل التاريخ الاسلامى خلال طريقه الطويل مرتبطا بالتاريخ الانسانى ، اخــذا وعطاء ، وكان له آثاره البعيدة فى التغيرات الواسعة التى عـــرفتها البشرية ، من حيث تحررها من عبودية الوثن وعبودية القيصر والامبراطور والفرعون ومن حيث اهداء الاسلام لها المنهج التجريبى الذى نقل البشرية الى عصر العلم، وتاريخ الاسلام وحدة كاملة متصلة الحلقات ، وهـــو مراحل متسلسلة يسلم بعضـــها الى بعض ذلك لانه يصدر عن قوة واحدة مؤثرة فى الاجتماع والاقتصـــاد والسياسة ، ولقد اشار الباحثون الى ان الاســـلام لا تخبو به نهضة حتى تبدأ نهضة اخرى ، وان الاسلام اثر فى كل الاحداث العالمية منذ وجوده الى اليوم وان

تأثيره سيظل مستمرا لا يتوقف فما زال الاسلام ينمو ويزداد اتساعا حتى شمل القارات الخمس الآن ، ولن يتأتى لقوة مهما عظمت أن تقضى على الاسلام ، وان كانت تستطيع ان تديل منه وأن تؤثر فى وجوده بالازمة أو بالغزو أو بالتغريب ، ولكنه قادر على استعادة قوته ودفع الضرر عنه بالتجدد من الداخل ، ولن يستطيع اى مؤرخ منصف أن يكتب تاريخ البشرية متجاهلا تاريخ الاسلام وأثره البعيد فى مجريات الاحداث .

رابعا : كانت أخطر محاولات «التغريب» تتركز فى المنهج الذى فرضته الارساليات التبشيرية التى استوعبت الشباب المسلم فى العالم العربى فى العصر الحديث والذى يقول : انها تلقن التاريخ وتعلم طلبتها أن يبحثوا فى التاريخ كأنه علم من العلوم الطبيعية المبنية على الاستقراء اى تطبيقهعلى نواميس الاجتماع الجديدة .

ولا ريب أن هذا منهج فى النقد التاريخى قد انبثق من الفلسفة المادية التى ترى أن هناك قوانين جبرية تحكم تطور التاريخ الانسانى . وهى فكرة قد انكشف على مدى الزمن فسادها وتبين ان من قالوا

بها قد انحازوا الى (عينات) من الوقائع التـــاريخية وجوهها حسب اهوائهم ، ولكن الارساليات تجـــد فى هذا المنهج اهمية خاصة وسلاحا هاما لانها تســـتطيع به ان تضرب تاريخ الاسلام وتزيف وقائعه وتشـــكك فى بطولاته وهذا هو هدفها الاساسى .

ولا ريب أن النظرة الصحيحة للتاريخ يجب أن تنتفى معها الحتمية والجبرية جميعا : ذلك لانالانسان صانع التاريخ له حريته واختياره وأثره الخاص فى كل ما يقدم عليه من فكر وعمل ، فلو كان وليد الاســـباب والعوامل الطبيعية فحسب ، ليس له يد فى تحـــويلها أو توجيهها ، لو كان كله نتيجة حتمية وليس بشكلمن الاشكال فاعلا مسببا لمـــا كان ثمة موجب لاى حـــكم يصدر منه بل لم يكن ثمة مصدر هذا الحـــكم كذلك لو كان مسيرا فى حياته كل التسيير ، مجبرا عـــلى كل عمل من أعماله لضاع معنى الحكم وما يتضمنهمن ثواب وعقـــاب » .

ان حكم التاريخ ، بل اى حكم يتنافى مع الحتمية والجبرية المطلقة ولا يقوم الا اذا اعتـــرف الانســـان بحريته واختياره وعقيدته على تحقيق هذا أو ذاك من الامكانات الكامنة فى ذاته والمنفسحة أمامه .

فحكم التاريخ مرتبط ارتباطا محكما بهذا المعنى الانسانى : معنى الحرية ، فهذا المعنىبمقدار انكشافه وتجليه وتحقيقه يتلخص جوهر الجهد الانسانى المتمثل فى التاريخ وبهذا المعنى ايضا يستطيع الانسان ان يحكم فى التاريخ ، ويفصل بين التراث الايجابى الباقى الحافز ، والتراث السلبى الزائل .

ومعنى هـذا ان الاتجاه الذى ركزت عليه الارساليات التبشيرية فاسد علميا وهو محاولة من محاولات هدم التاريخ الاسلامى وبطولاته وعبرته فى نفوس الشباب المسلم والحيلولة دون ان يؤدى هـذا التاريخ دوره فى الاجيال الجديدة ليقدم لها قدرته على مواجهة الاحداث المتطورة ويكشف لها الاخطار المحيطة ويدفعها الى الطريق الصحيح لمواجهة الغزو الذى يتجمع له قوى الاستعمار والصهيونية والماركسية .

ولقد تلقفت الصهيونية العالمية محاولة تزييف التاريخ وتفسيره على نحو مسموم كما فعلتالماركسية حين أجرت عليه منهج التفسير المادى .

أما الصهيونية فقد عمدت الى الاستيلاء علىعدد كبير من كراسى الجامعات الغربية ، والعمل على

تبرير الغزو الصهيونى للبلاد الاسلامية والسيطرة على فلسطين ، واثارة الشبهات حول الامة العربية وتاريخها ومكانتها ، وحول دينها وعقيدتها ، باعتبارها القوة المواجهة لها فى الصراع ، واثارة الغرب على الشعوب العربية والاسلامية وذلك باعادة عرض صور من احداث الحروب الصليبية وغيرها على نحو مضلل، وهم الذين يحاولون الآن اثارة مخاوف أوربا والغرب نحو العرب وازدهارهم ونهضتهم كوسيلة لتعبئة الراى العام الغربى ضدهم وهم الذين يقفون الآن من وراء تجديد الكتابة عن الفرق الاسلامية وعن الثورات التى قام بها الزنج والقرامطة والباطنية ودفعهم بعض اذنابهم من التغربيين لتصويرها بصورة أنها ثورات اسلامية ، وقد ركز مؤتمر بليتمور الصهيونى الذى عقد عام ١٩٤٢ حول هذا الاتجاه وكل ما يتردد الآن وينشر عن الحركات الباطنة كالقرامطة والاسماعيلية والجلاح هو من صنع هذا الاتجاه فى محاولة تصوير هذه الفرق والشخصيات على أنها من دعاة العدل بينما هى من صميم دعاة الانتفاضة على الدولة الاسلامية والعمل على هدمها.

ويتصل هذا التأثير بما نراه فى كتب التاريخ المدرسية من محاولة تصوير رجال التبشير والارساليات

الذين وفدوا على العالم الاسلامى فى اوائل حـــركة الاستعمار البرتغالى والاسبانىعلى أنهم أبطال الكشوف الجغرافية ، أو ما نجده من تمكين فى كتب التـــاريخ الاسلامى على مسائل الخلاف بين معاوية وعلىوابراز الزوايا الحادة فى المواقف والاحداث حتى يبدو التاريخ الاسلامى كله وكأنه صراع سياسيين محترفين عـــلى مغانم الحكم او انه تضارب بين الدماء والعـــروق ، بينما لا ترى مثل هذه للصور فى الصفحات الخاصـــة بتاريخ الفراعنة .

ويتصل بهذا ما تغص به دائرة المعارف الاسلامية (التى كتبها مجموعة من المستشرقين اليهود والمسيحيين المتعصبين) وكأنها مجموعةافتراءات واتهاماتحاقدةعلى الاسلام وبنىالاسلام والقرآنوهىتحاولأنتصور الاسلام وكأنه من صنع محمد وايماءاته وتصوراته ، وما كتبه بروكلمان وغيره وكلها تحاول أن تصيب رجال الاسلام وحكوماته بالاتهام والشبهة والهوى ، وفى هذا المعنى يقول الاستاذ يوسف العشى : لقد حاول الكثيرون ان يصموا تاريخنـــا بكثرة الفتن والحـــروب والمكايد والاضطرابات وليس هنا مجال الرد عليهم ، غير أن النظرة الصحيحة الى التاريخ من خلال عوامه العديدة تعطى البيان الواضح عن أن هذه الوصمات لا اصل

لها صحيح ، وان كل ما فى الامر ان هناك « تفاعلات » فى المجتمع الاسلامى العربى كانت تأخذ طريقها ولا بد ان تأخذ طريقها فى ذلك المجتمع ، وان هذه التفاعلات سنة من سنن الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وهى تفاعلات تحدث فى كل امة ، بل ان الامم الاخرى كانت تتلقاها بعنف أكثر مما تلقاها به المسلمون والعرب . وتاريخ الامم دائمـــا ممزوج بالحـــروب والفتن . والاضطرابات اكثر من التاريخ العربى .

ولقد كان لهذه المحاولة الخطـــيرة التى ما تزال مستمرة أثرها البعيد فى نفس الشباب المسلم الذى ينظر الى تاريخه وزعماءه من خلال وجهة نظر تغريبية ذات هدف واضح فى هدم المقومات الحقيقية للاســـلام وتاريخه وعقائده .

وهناك اتجاه العنصرية فى كتابةالتاريخالاسلامى وهو أيضا من عمل الاستشراق وهى المحـــاولة التى ترمى الى تصـــور نزاع حاد بين العـــرب الحاكمين والشعوب المحكومة .

وقد حاول فان فلوتن دولهاورند تصوير القرن

الاول الهجرى وكانه صراع دموى بين العرب كساده وحكامه وبين سكان البلاد المفتوحة .

وقد تأثر بهـذا الاتجاه مؤرخون عرب كثيرون فحاولوا أن يصوروا انتفاضات بعض الوفد كالبابكية والقرامطة على انها حركاتمتحررة وتلكنظرة مستمدة من الفكر السياسى الحديث ولم تكن من طـابع ذلك العصر .

كذلك فان هناك محاولات ترمى الى الانتفاضمن جوهر الاسلام نفسه على أساس القـول بأن تاريخ الاسلام هو تطبيق لهذه الاصول الاسلامية ، والواقع انه لا بد من التفرقة الواسعة بين مبـادىء الاسلام الربانية الثابتة الممثلة فى القرآن الكريم والسنةالنبوية الصحيحة وبين التجربة التى قام بها الحكم الاسلامى والتى تلتقى مع مبادىء الاسلام وقد نفترق فى بعض المراحل . ولا ريب ان هناك نفر ممن تولوا زمامالحكم فى الدولة الاسلامية بعد الخلافة الراشدة بعدوا عن « منهج الاسلام » فمن غير الحق ان يصـور سلوك هؤلاء الحكام بأنه من مبادىء الشريعة . وأهم ما فى ذلك الفهم الخاطىء من محاذير هو محـاولة نسـبة الاستبداد الى الاسلام ومحاولة الاستشراق تبـرير

الاستبداد بالاسلام نفسه حيث يقول بعضهم وهـو كاذب : ان نظام الحكم فى الاسلام نظام اسـتبدادى ونسى هؤلاء أن للاسلام مبادئه الواضـحة التى تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم لمصلحة المحكوم نفسه .

وقد وقع فى هذا الخطأ توماس ارنولد فى كتابه الخلافة ومرجليوت ، وماكدونالد وموير ، وكلهم حاول ان يتخذ من واقع التاريخ الاسلامى ومن أخطاء بعض الولاه المسلمين مبررا لان ينسب اسـتعداده الى الاسـلام .

والانصاف يقتضى أن يقال : ان للقرآن تعاليمه الواضحة التى توجبتساوى الناس فى جميعالحقوق، فاذا ما قامت رئاسة تتفق مع هذه التعاليم التى جاء بها القرآن فهى التى تنطبق عليها الصفة الاسـلامية ولا يستطيع اى طاعن أن يطعنها حينئـذ فى سموها وكفالتها لجميع الناس فاذا لم تتفق هذه الرئاسة مع تعاليم القرآن فانه لا يصح القول بأن هـذه الخلافة خلافة اسلامية ، لانه اذا كانت قد صادقت تعـاليم كتاب الله الذى هو دستور الدعوة الاسلاميةفهل يصح ان ينسب الى الاسلام ما هو متصادم مع دسـتوره (دكتور محمد رأفت عثمان) .

والخلافة فى سماتها الصحيحة ينظر اليها ايام صفائها ونقائها ولا يصح ان يتخــذ الباحث أى عصر يروقه فيحكم عليها بالسمات التىيجدها فى هذا العصر وهذه المنحرفة ليست خلافة على المسلمين بل رئاسة ليست ملتزمة فى سياستها لهم بقانون الاسلام .

ان تميز التفسير الاسلامى للتاريخ ، وهو المنهج الوحيد الصالح لتطبيقه على التاريخ الاسلامى يتميز بسمات هامة : تتغاير مع مفاهيم الفكر الغــــربى فى الاساس ومن ثم يختلف معه فى التفسيرات : الليبرالية او الماركسية على السواء .

أولا : الانسان :

فالانسان فى الاسلام له ارادة حرة قادرة عــلى العمل وهى موضع مسئوليته وهو بذلك ليس خلية فى جسم المجتمع ، وليس محــكوم عليــه بالحتميــة او الجبرية .

وهذا الفهم يختلف مع الفكر الغربى الذى يرى فناء الفرد فى المجموع ، وان وجود الفردكشىء منفصل قائم بذاته خداع ، ويرى الفكر الغــربى أن الجنس

البشرى عبارة عنحشد من مخلوقاتاليه لا ارادة لها. وان الحياة البشرية ظاهرة محدودة يحيط بها الزمن احاطة تامة . ولذا فان وجود الفرد غير ذى اهميـــة قـــط .

والاسلام يعتبر الانسان فى موضع الخــلافة فى الارض .

ثانيا : ترتبط فى الاسلام الازلى بالابدى،والثابت بالمتغير ، والروحى بالمادى ، والدنيــــوى بالاخروى فنظرة الانسان الى الحياة وعمله فيها تمتد الى ما بعد الموت والى البعث والجزاء والى حيـــاة أخـــرى هى الخلود بعينه .

وهذا الفهم يختلف مع الفكر الغربى الذى يرى أن الحياة لها نهاية ليس بعــــدها شىء وان النظرة قاصرة عند هذا الكون المحدود والزمن المحدود .

ثالثا : يؤمن المسلم بأن العالم يتحرك بارادة الله المطلقة الفعالة ، التى خلقت نواميس الكون والوجود والمجتمعات وقوانينها وان هذه الارادة الربانية قادرة على تغيير هذه النواميس وايقافها وان الانســــان

ارادة محدودة داخل ارادة الله ومنها وهى موضـــــع مسئوليته ، ومنها يجيىء اثره فى تحريك المجتمع وتغيير التاريخ .

فالحق تبارك وتعالى قادر على التغيير بغير سبب واضح من الاسباب التى يعرفها الانسان او يقيسها من تلك القوانين واحداث التاريخ شاهدة عـــلى ذلك فى عديد من التغيرات الكبرى التى حدثت ولم يســـتطع الماديون تفسيرها الا بأن أطلقوا عليها اسم الصدفة أو الفجاءة .

ثالثا : ينطلق التفسير الاسلامى للتاريخ من الله هو الفاعل الحقيقى لكل أحداث التاريخ عن طـــريق خلقه وجنوده (وما يعلم جنود ربك الا هو) والانسان واحد من هؤلاء الجنود وقد قدم القرآن اسباب قيام الامم وتطورها وانهيارها ،وكشف عن المصدر الحقيقى للنصر والهزيمة والبقاء والزوال .

والقرآن يرد هذه العوامل اساسا الى الاخلاق والايمان بالله والتقوى ، فاذا حافظت الحضارة على هذه العوامل استطاعت ان تستمر وان خالفت سقطت.

(الم يروا كم اهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الارض ما لم نمكن لكم وارسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الانهار تجرى من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) .

ومعنى هــذا أن الامم اذا انحرفت الى الترف والفساد والانحلال وعزفت عن العمل الجاد القائم على الاخلاق والرحمة والتقوى ، سقطت .

هذا هو القانون الثابت الذى لا يتغــير والذى يصيب الامم اذا خرجت عن جادة الحق وانحرفت عن الطريق الصحيح ، طريق بناء المجتمع الربانى ، وقد أصاب هذا القانون المسلمون أنفسهم عندما انحرفوا عنه ماذا عادوا اليه عاد اليهم مجــدهم ، ولقــد كان المسلمون دوما اذا ما خرجوا عن جادة الحق والخلق اصــابت ســــنة الله التى لا تخلف فاذا عادوا الى الاستمساك بالحق والمنابع واعتصموا بالله وكتــابه أعيدوا الى القوة والنماء والتمكين فى الارض ، ويدعو القرآن المسلمين الى ان يسيروا فى الارض فينظــروا عاقبة الامم التى سبقت ، والتى يمشون فى مساكنهم، كالفراعة والرومان ، وغيرهم ، ليكون لهم عبــرة من ذلك .

« قل ســــيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق » .

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الارض » .

« أفلم يسيروا فى الارضفتكون لهم قلوبيعقلون بهـــا » .

ولعل هذا هو القانون الحتمى الذى لا ســبيل الى تجاوره ، اذا فســدت الامم انهارت مجتمعـــاتها وحضارتها ، واذا عادت الى الحق أعيدت الى مكانتها ورسالتها وللمسلمين رســـالة وامانة عالمية عليهم ان يبلغوها للبشرية كلها ولذلك فهو احق ان يلمتســـوا اسباب الحياة والقوة من مصدرها الاصيل القرآن .

رقم الايداع ٧٩/٣٨٣١
الترقيم الدولى ١ — ٦٧ — ٧٣٨

المطبعة الفنية تليفون ٩١١٨٦٢ — القاهرة